ماذا لو ؟؟

يوسف حسين

أتى على حين غرة، وقدماه ثقيلتان، تتداعى روحه حزنًا على وهن، تحدث معي كثيرًا عن ما ألمّ به، سنوات يا رفيقي لم أرَ النور كما كُنت، كل شيء اكتسب صبغة رمادية، لم أعد أستطيع التعبير عن الفرح، لم أعد أعرف ماهية السعادة!! ولمَ كل هذا؟ ما الذي أجرمته في حق الأرض، لمَ تريد ابتلاعي كلما نويت النهوض! وأخذ يسرد القصص والحكايات، قصةً تليها أخرى، يتداخل في معظمها المبالغة والانكسار، لكني كُنت أعلم جيدًا أن الرجل وصل قمّة القنوط النفسي، فالسجائر التي استهلكها تفوق ضحكاته منذ البارحة؛ أنصتَت له كل جوارحي إلا أُذنيَّ، فحراسهما مصابان بالصمم ولم يعقلا ما تفوهَ به، كانت عيناي تتأملان سكنات عينيه وتلاحظان شغف يديه بإمساك من تسبب له بهذه المعاناة، كنت حريصًا على جعله يغرف ما في جوفه ليتقيأه على المنفضة، وحين أكمل تنهد بسكون.

هنا قمت بالبحث في خزانة رأسي، فجميع الأدراج ممتلئة بالردود، بأي العناوين أُهوِّن عليه، هذه الخزانة خاصة بالطعام والأخرى بالعشق وتلك بالتجارب وهذه القريبة جدًا للصمت، والتي في الأعلى للصبر والحكمة، وتلك الملقاة مبعثرة بالتفاؤل، الأدراج كثيرة وكذلك العناوين، اختصرت الطريق عليه وقلت "هل تريد المزيد من الماء؟" فرحل مخلفًا فوضى لا نظير لها على منفضة السجائر.

يبدو أنني من يريد الماء والله المستعان، بحثت عنه حتى عثرت عليه موضوعًا في كوب تحت المنضدة، حبوت كما يحبو الطفل الصغير وأمسكت به ثم رفعته نحو فمي، لكن قبل أن أرتشف منه ما يغسل جوفي من هراءات صديقي التي وقفت عالقة في حلقي، حضرت زوجتي بوجه عابس وعينين مرهقتين كحبتي عنب فاسدة، ثم قلبت بصرها في الغرفة، لمحة في وجهي وأخرى في المخلفات التي تركها صديقي ورحل؛ أخذت نفسًا عميقًا، وزفرته في عجالة استعدادًا لشجارنا اليومي، الذي بدأناه منذ عشر سنوات، اعتدناه منذ أول طفل لنا، وبات وجبتنا الدسمة التي نتناولها باستمرار، بدأت زوجتي بالثرثرة كعادتها مع التأفف والنظر لي باحتقار ثم تفوهت بغضب:

- قبل أن تنصح صديقك انصح نفسك.

نظرت إليها بنظرات مماثلة والتزمت الصمت لوهلة، حتى كررت جملتها وأضافت هذه المرة جملة أشد إهانة لرجولتي، لم أتحملها أكثر من ذلك، اقتربت منها وعيناي تطلقان شررًا وقد انكمش أنفي حتى التصق بجبيني من شدة الغضب، وقمت بلطمها على وجهها لطمة قوية، لم تستطع تحملها، وعلى إثرها اصطدمت رأسها بالحائط وسقطت أرضًا، حدقتها بنظرات أشد شراسة، كنت أود أن أمزقها إرْبًا وأوزعها في الشوارع لتكون وجبة شهية للكلاب الضالة، لكني تراجعتُ عندما رأيت طفلتي الصغيرة -ابنة الأربع سنوات- تصرخ وتركض نحوها حتى ارتمت بأحضانها، في حين أخفضَ الابن الأكبر رأسه أرضًا من شدة خجله نيابة عني، ثم تركتها على حالها وصعدت إلى الشقة الأخرى في الدور العلوي، حيث غرفة أبي، دلفت إليها وجلست فوق مكتبه وأنا أحدق في الغرفة باستنكار وكأنني أول مرة أمكث فيها، ثبّتُّ بصري على دولابه الذي لم يُفتح منذ وفاته، أخذني الفضول إلى

تفحّصه لأرى ما بداخله، نهضت عن مقعدي وهرولت نحوه، ما إن فتحت بابه حتى كدت أختنق من شدة التراب الذي هب على حين غفلة مني وكأنه عاصفة عاتية أتت بكل قوتها لتتحشرج في حلقي، تسد عني منافذ الهواء، سواء عن طريق الفم أو الأنف، شهقت شهقتين حتى استطعت التنفس مرة أخرى، ثم تراجعت خطوتين وانتظرت لوهلة حتى خلا الدولاب من غباره الذي كاد أن يقتلني ثم عدت ثانية إلى هناك، حدقت في محتوياته، ليس بالشيء الذي يثير انتباهي، كل شيء طبيعي لا جديد، لم يلفت انتباهي شيء مميز سوى مزهرية موضوعة في إحدى زوايا الرف العلوي، يخفي التراب ملامحها لكن بريقها يلمع في عيني، امتدت يدي لتمسك بها لكن سرعان ما وجدتها قطعتين، الجسد بالرقبة قطعة والأثاث قطعة أخرى تشبه طبق الطعام، لكن ما أثار فضولي أني مكثت قرابة ربع ساعة أبحث عن شرخ يدل على أن القطعتين كانتا جسدًا واحدًا.. لم أجد!!!!!!

تركت الأولى وأخذت الطبق ثم عدت إلى المكتب مرة أخرى جلست ووضعته أمامي وأنا أحدق فيه بذهول، هناك شيء ينجذب بصري إليه لكنني لا أعرفه، ماذا لو مسحت الغبار عنه، أظنه سيبدو جميلًا، بدأت أمحو التراب عنه، حتى رأيت فجأة دخانًا يخرج من منتصفه، فالتصقت بالكرسي في الحائط وأنا أحدق في الدخان بذهول، قدماي تتصارعان تخبطًا وقلبي يقفز من صدري من شدة الرعب والهلع، سرعان ما تحول الدخان إلى مارد لا يتعدى طوله مقدار قدمي، شعره أسود مسترسل خلف ظهره وعيناه كنجمتين ضالتين ظهرتا في ليلة حالكة السواد، أنفه ملتصق في أذنه اليسري وشفتاه كورقتي تفاح ذابلتين، أيقنت حينها أني هالك لا محالة، حتى سمعت صوتًا يناديني باسمي:

- يوسف.

بدا مختلفًا تمامًا عن الهيئة السالفة، عذب ورقراق يشبه كروانًا يناجي حبيبته، اطمأنَّ قلبي لوهلة وأنصتُّ إليه حتى ردَّدَ قائلًا:

- انظر إلى الطبق وأخبرني ماذا ترى؟..

سرعان ما وجهت بصري داخله بعد أن تخلى هو عنه وأصبح يقف فوق المكتب، رأيت أربع نسوة ما رأت عيني مثلهن قط، بدأت أتفحص كل واحدة منهن وأنا أردد في نفسي:

- لله در الاعتدال في عليائه، كزيتونة لا شرقية ولا غربية جمالًا على جمال.

ما إن فرغت من التحديق فيهن والتغزل بهن ووصف أشكالهن حتى سألني:

- هل يوجد شيء آخر في الطبق؟

قلت في نفسي سؤاله غريب حقًا، لا أرى فيه سوى الملكات الأربع اللائي خطفن قلبي وعينيَّ بجمالهن منذ الوهلة الأولى، لكنه سرعان ما أخرجني من شرودي عندما أضاف:

- أبعد بصرك عن النساء وتفحص الطبق جيدًا، هناك أشياء أخرى يجب رؤيتها.

عم يتحدث؟!!! لا أرى غيرهن ولا أريد أن أبصر شيئًا عداهنَّ، لا أودُّ أن أشيح ببصري بعيدًا عنهن، لذا ضربت بكلماته عرض الحائط وثبتُّ بصري عليهنَّ جيدًا حتى أني بدأت أتفحص مفاتنهن، وفجأة سمعته يقول بنبرة تحمل التوبيخ والتهديد:

- أيها الأحمق، اتركهن في حالهن وابحث عن الأشياء الأخرى وإلا

حولتهن إلى أسود مفترسة وجعلتُكَ طعامًا لهم.

ارتعدت أوصالي عقب تهديده لي، وعاودني الخوف سريعًا وبدأ يشدني من قلبي ويخرج لسانه استهزاءً بي، مما جعلني أعرض عن رؤيتهن وأتجول ببصري داخل الطبق، اتسعت مقلتاي في ذهول عندما رأيت رجلًا مديد القامة، قوي البنيان يحمل في يده عصبة من المفاتيح وأمامه مئات القلوب، راقبته في صمت وهو يسير بخطوات بطيئة وصولًا إلى ما وُضع أمامه، أخذ يخرج مفتاحًا تلو الآخر، يفتح قلبًا ثم يعقب بآخر، قارنت بين عصبة مفاتيحه وبين القلوب، فأيقنتُ أن العدد يبدو واحدًا، علمت حينها أن لكل قلب مفتاح، حاولت أن أعرف من هذا الرجل، لكن عقلي توقف حين لاحظت بعوضة تحلق فوق رأسه، تقترب من أذنه ثم تلدغه فينزعج منها ويحك موضع لدغتها بيده، ظلت الحشرة تمتص دماءه وهو لازال يتألم حتى تركته واتجهت نحو الحور الأربع، هنا انتفض قلبي خيفة عليهن، فالواحدة منهن لن تستطيع تحمل لدغة واحدة، كما أن جسدهن يفوق بياض الثلج، وأظنه يخلو من العظام، كنت أود أن أقتحم سطح الطبق وأقضي عليها، وهممت لفعل ذلك، لكن المارد ناداني متسائلًا عما أراه داخل الطبق، وصفت له الرجل وما يملكه وكذلك القلوب ولم يفتني البعوضة اللعينة، ثم وجدته يقول لي:

- يستطيع هذا الرجل الخارق اختراق أي جسد وفتح قلب صاحبه ليعرف ما بداخله، والأربع نسوة يمكنهُنَّ أن يكنَّ زوجاتك إن طلقت زوجتك، أما هذه البعوضة، فهي الأمنية الثالثة، تستطيع أن تتمثل بها وتمتص دم من ظَلمك، والآن لك أن تختار أمنية من الثلاث، ومسموح لك استبدالها بأخرى، لكن الأخيرة ستعود إلى حيث أتت.

أخذت أحك جانب رأسي في تفكير، استبعدت فكرة أن أكون الرجل

وكذلك البعوضة، لكن إن كنت سأتزوّج النسوة الأربع، فسأحتاج للرجل لأعرف ما في داخل قلوبهن! لكن كيف وهو يقول أَبدِل الأولى بالثانية، أما عن زوجتي فلا ضير في طلاقها، لقد حسمت الأمر منذ قليل واتخذت قرارًا، لكن ماذا لو قتلتها دون أن أمسّها، جالت في رأسي فكرة لا بأس بها، وجدت نفسي أقول له:

- الأمنية الأولى سأكون البعوضة.

لم أرَ ابتسامته منذ ظهوره إلا في هذه اللحظة، ثم صفق بيديه فلم أشعر بجسدي إلا وأنا أحلق في الهواء، توجهت مسرعًا نحو المرآة حدقت فيها، فرأيت نفسي في جسد البعوضة، ابتسمت في نفسي وحلقت بجناحيَّ حتى تجاوزت الغرفة مرورًا بالردهة ثم وصولًا إلى شقتي، وجدت الباب مغلقًا، تجاوزت البناية وتوجهت إلى الخلف، ثم دلفت داخل الشقة من خلال النافذة الخلفية، بحثت عن زوجتي فوجدتها كما تركتها، جالسة على الأرضية مسندة رأسها إلى الجدار وقدميها ممددتين أمامها، تسيل دموعها على وجنتيها بغزارة، لم أنظر لها بعين الرضى، بل حدقتها بنظرات كرهٍ وانتقام، تفحصت جسدها وابتسمت عندما رأيت يديها وكتفيها مكشوفين وكذلك ساقيها، حيث كانت ترتدي عباءة تصل إلى تحت الركبة بشبر دون الأكمام، اقتربت منها وبدأت ألدغها وأمتص دماءها، لكن الغريب في الأمر أنها لم تحرك ساكنًا، ظلت كما هي، يداها بجوارها وبحورًا من الدموع تشق الطريق إلى خديها، لا تبالي لما أفعله، لقد وضعت بصمتي في كل شبر عارٍ في جسدها، ثم حلقت في الهواء حتى وصلت إلى أنفها، وقفت فوق أرنبته وتذكرت قصة البعوضة التي ذلت رجلًا وطرحتهُ أرضًا حتى قضت عليه، حينها شعرت بالعظمة وقلت في نفسي:

- سأقضي عليها بهذه الطريقة ثم أعود لأترك البعوضة وأتزوج الحسناوات الأربع.

بدأت أسير نحو فوهة أنفها اليمنى حتى دلفت داخلها وبدأت أصعد إلى أعلى، تعرقلت كثيرًا، وكدت أن أسجن داخل شعيرات أنفها التي رأيتها كخيوط عنكبوت نسجت نفسها، والتفت حولي لتمنع صعودي إلى جمجمتها، لكني كافحت ونزفت الدم الذي شربته من زوجتي عن طريق العرق، وتسلقت عصبها مرورًا بعروق جبينها حتى مررت من شريان مركز الشم وصولًا إلى المخ، تنفست الصعداء، وقبل أن ألدغها سمعت أصواتًا غريبة وشظايا نيران تتطاير داخل تجويف مخها، هذا الأمر الذي حثني على التراجع خطوتين لأصبح داخل الشريان مرة أخرى وأخرج رأسي منه في محاولة للتلصص كي أعرف ما يدور بداخل رأسها، صُدمت حينما رأيت بداخلها ساحة حرب، كانت معركة دامية، شاهدت خلالها أبنائي وهم يتشاجرون وكذلك رأيت أواني المطبخ تتصارع محدثة صوتًا كصوت الرعد، ينتج عن صراعهما شرر متوهج، يطير في أرجاء جمجمتها وحين يسقط يحرق موضعه، رأيت الجزار يذبح ضحيته أسفل مخها ويترك دمها يمتزج بخلاياها، شاهدت محصل الكهرباء وهو يصرخ في وجهها لتأخرنا عن دفع الفاتورة بسبب غلائها، وقع بصري على مدرسين الأولاد الذين يقفون صفًا واحدًا ينتظرون أجورهم وكل واحد منهم ينفخ في ضيقٍ وكأنه جندي مغلوب على أمره يؤدي الخدمة العسكرية قسرًا .

علاقة غريبة مريضة مشوهة، في سباق محموم للفتك بشيء ما في روحها، وكأنها حقل تجارب خصب ستُلقى نتائجه في سلة المهملات، تعجبت من صبرها وقوة تحملها، لقد أطفأت أعواد الثقاب في عقلها وكنت

أتمتع برائحة الشواء بينما هي كانت تُمنِّي نفسها أن تمطر سماء قلبها الليلة أو بعد غد، تمنيت لو أنزع أجنحتي وأستبدلهما بخطافين حادين لأجلب كل ما يؤذيها وأركله خارج رأسها، فكرت أن أقف في المنتصف وأستقبل الأعيرة النارية كلها في صدري كي أرقص معها في حفلة الشواء حتى لا أتركها وحيدة، تقدمت خطوتين بعد أن تناولت قطرتيّ شجاعة اكتسبتهما من دمها الذي تذوقته، لكن سرعان ما تراجعت وفضلت أن أبحث عنها حتى عثرت عليها تجلس أسفل العقل وهى تحتضن رأسها بين يديها تضغط عليها بقوة كي تقاوم الصداع الذي نتج عن كل ما رأيت، بحثت عني وسط هذه المعمعة فلم أجدني، ازدادت المعركة نشوبًا وانعدمتْ معها قدرتها على التحمل حتى تحولت الشظايا إلى كتل نارية تحرق خلاياها، اقتربت كتلة من الشريان الذي أقف فيه تبعتها أخرى، الأولى أحرقت فوهة الشريان والثانية أصابت صدري، اختل توازني ونشبت النار في جسدي، لم أستطع التحمل فانزلقت من الشريان دون إرادة مني، كادت النار أن تأكلني فأنقذني دمها الذي أخمدها، ولازلت أنزلق حتى سقطت من منخرها الأيمن فوق عباءتها، ضاقت أنفاسي وكادت روحي أن تخرج مني، بينما جسد البعوضة قد انتهى، صرخت بأعلى صوتي:

- أيها المارد أنقذني.

بعد وهلة وجدت نفسي أمامه في غرفة أبي والطبق المسحور لازال موضوعًا فوق المكتب، بينما أنا أترنّح بين الحلم واليقظة، لا أصدق أنني نجوت من الموت سمعت المارد يقول بحزن:

- لو تأخرت لوهلة لقضي الأمر وأصبحت الآن جثة هامدة فوق كرسيك هذا.

حمدت الله وشكرته وأخذت شهيقًا سرعان ما زفرته وقلت للمارد:

- أريد الرجل الخارق..

ابتسم مرة أخرى، لكن هذه المرة لاحظت أن أنفه قد اعتدلت وأصبحت كأنف طفل صغير، وكذلك شفتاه أصبحتا أكثر مرونة، لا أعرف لمَ!! لكن لا يهم أريد الرجل، سألني المارد بدهشة:

- أتريد الرجل وتترك أربعة من النسوة اللاتي لا يضاهي جمالهن نساء العالم!

فحدقته بنظرات حزن وأسى دون حديث، لاحظ أني لم ألتفت للنساء هذه المرة فصك شدقيه وصفق بيديه، أحسست بروحي قد فارقت جسدي، وسكنت جسد الرجل الخارق، بدأت أسير بجسده وبيدي مفتاح واحد، انتزعته من عصبته وتركت البقية، سرت به حتى وصلت إلى المكان الذي كانت تجلس فيه، لم أجدها، بحثت عنها في أرجاء الشقة حتى عثرت عليها داخل المطبخ تعد الطعام رغم دموعها التي لم تجف بعد، اقتربت منها، انحنيت بقامتي وقبلت قدمها اليسرى ثم أخرجتُ لساني ومررته بين أظافرها، بحثًا عن مكان أخترق جسدها منه حتى رأيت ظفر إصبعها الأكبر يرتفع، فتح لي بابًا أنفذ منه، دلفت داخله وبدأت أعبر ساقها إلى أعلى، لاحظت تجمع كتل من الدم الزرقاء في شراييها، أيقنت أنها بسبب لدغات البعوضة، بدأت أبتلعها، مشطت الساق اليسرى وابتعلت كل ما فيها من أذى، وقفت عند الركبة وأخذني التفكير في جولة، هل أكمل طريقي وصولًا إلى القلب أم أعود وأخترق ساقها اليمنى لأمحو أثر ما خلفته ورائي من ألم!.

طال التفكير حتى أقنعت نفسي بالهبوط مرة أخرى، عدت إلى حيث جئت فلما وصلت إلى قدمها اليمنى، قبلتها ثم اخترقت الجسد عن طريقها، ومحوت كُرات الدم الفاسدة التي قابلتني في طريقي حتى وصلت إلى كتفها الأيمن، عالجت ما أفسدته فيه ومررت إلى الجانب الأيسر خلف رقبتها،

مسحته جيدًا وبدأت أنزل إلى أسفل، وقفت عند القلب وضعت المفتاح في دائرة ظهرت لي فى أعلاه وفتحته، كان كغرفة كبيرة بها نافذة واحدة، وقفت على حافّتها وبدأت أنظر للداخل.... أخيرًا وجدتني هنا، أقف في منتصف قلبها وبيدي درع أردع به تلك الكتل النارية التي تخرج من شرايين قلبها متجهة نحوي، كأنها شعب من الخفافيش في مدينة خالية من الغذاء إلا من دمي، بدأت أنظر إلى نفسي في ذهول وأنا أقاوم تلك الضربات بشراسة، غير مبالٍ لما يحدث في قلبها من تصدُّع وحروق نتاج سقوط النار داخله، تعبت روحي وهي على الحافة وكَلَّ جسدي من المقاومة، سألت نفسي سؤالًا:

- ماذا لو تخليت عن الدرع؟...

- سأموت.

خرجت هذه الإجابة بتلقائية ثم أضفت آخرًا:

- وإن لم أتوقف؟

- ستموت هي... إذن لابد أن أكون درعًا يحميها، رجلًا لها لا عليها، الآن عرفت قيمتها وتضحياتها وسبب تصرفاتها، أنا من لم أعطِ لها فرصة لتخرج ما بداخلها من هموم، لم أشاركها مشاكلها، لم أَحتويها، لم أتحمل عنها عبْأَ الأولاد، ولم أسألها يومًا عن سر ذُبولها، كنت أظن أن المسؤولية فقط هي توفير المال... لكنني كنت موهومًا.

قلت هذا لنفسي وصرخت بأعلى صوتي مستغيثًا بالمارد، هذه المرة كنت أشعر به وهو يحملني فوق جناحيه ويعيدني إلى غرفة أبي، عندما عدت إلى جسدي، نهضت عن المقعد وتحركت نحو الخارج فسمعت المارد يقول:

- انتظر... كان لك أمنيتان؛ الآن سأهبك الثالثة هدية مني.

ثم أضاف :

- لك أن تترك واحدة منهن إن شئت وتُبقي على زوجتك.

ابتسمتُ ابتسامة عريضة عقب انتهاء حديثه ثم قلت له:

- هنَّ هديتي لك وكذلك الغرفة والشقة، أما أنا فلديَّ زوجة تعادل نساء العالَمَيْنِ وسأعمل جاهدًا على أن نكون من أهل الجنة، فلا أريد فراقها بعد اليوم، وداعًا صديقي العزيز..

ودعته وهرولت نحو شقتي، وجدتها على حالها في المطبخ، مشيت على أطراف أصابعي ثم احتضنتها من الخلف وهمست في أذنها قائلًا بحب:

- أعشقك، سامحيني .

أدارت لي وجهها وانهمرت في البكاء، فاحتضنتها بقوة بعد أن طبعت قبلة على جبينها وقلت:

- والله لن أؤذيكِ مرة أخرى لا جسدًا ولا نَفْسًا.

أجهشت في البكاء وقالت بصوت مبحوح:

- بل أنا من أعتذر منك، أنا من دفعتك لهذا.....

وضعت يدي على فمها كي لا تكمل حديثها، ولأول مرة تخليت عن جمودي لتسقط دموعي بغزارة دون خجل، فاحتضنتني بقوة كأم تحتضن ابنها العليل لتخفف عنه ألامه.....

لا أعلم هل صادفتم في حياتكم ذات مرة ؟ ..

تلك الأرواح الملائكية ..

أشخاصًا غاية في الندرة ..

تتجنى عليهم ..

تخطئ في حقهم ..

تظلمهم ..

تقصر في واجباتك معهم ..

لكنهم يسامحونك عن طيب خاطر دون أن تطلب منهم ذلك ..

ثم يبحثون في أنفسهم لك عن أعذار وهمية لكيلا تسقط من أعينهم ولا ينضب نصيبك من معين الحب في قلوبهم؛ ذاك الذي يتفجر من أعماق قلوبهم.

والأغرب من ذلك كله :

أنهم في الأخير يأتون إليك ويعتذرون منك أنهم سببوا لك بعض الضيق..

أكاد أجزم أن معظم النساء أرواحهن ملائكية ..

ما رأيكم أن تفكروا في الأمر، وكل رجل منكم يبحث في نفسه عن ما يرضي زوجته ..

ماذا لو احتوى كل رجل زوجته وعرف ما تفكر فيه وتجنب أذيتها، هل سترتفع حالات الطلاق؟ وتستمر مشاكل الأزواج ويدفع ثمنها الأولاد والبنات ؟....

تمت بحمد الله.